أنْ يُطوَّر بهـذا الشكل الحالى ، وكـان به رجل يبيع الخـيار وينادى : العشرة بريال يا خيار ، فسمعه رجل يسـعى ، فقال متعجباً : إذا كان الخيار العشرة بريال ، فَبِكم يكون الأشرار ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ(١) فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلنا : إن من الأشـياء التى سخَّـرها الله لسليمـان ليحـقق له مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده أنْ سخَّـر له الريح وسخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. إلخ .

وتسخير الجن يعنى : أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له أخفَّ الخَلْق حركة وأخفاها وهم الجن ؛ لأن للجن طبيعة مخصوصة ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ**(٢) **مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ولهم أيضـاً خفَّة فى مـزاولة الأعمـال بأن يقصـروا زمنها ، وأنْ يكثروا حملهـا ، والدليل على ذلك أن سليمان ـ عليه السـلام ـ حينما طلب عرش بلقيس ، وكان فى سبأ قال لجلاَّسه : ﴿ **أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل] فلم يتكلم أحـد من الإنس ؛ لأن

---

(١) المنسأة : العصا الغليظة ، قال الفراء : هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى ، يقال لها المنسـأة ، أخذت من نسأت الـبعيـر أى : زجرته ليـزداد سيـره . [ لسان العـرب ـ مادة : نسأ ] .

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [ القاموس القويم ٢/٩٨].

سليمان قيَّد الإتيان بزمن فوق قدرة البشر ، وقد طلب سليمان العرش بعد أنْ علم أن قوم سبأ قد خرجوا وهم فى الطريق إليه ، ويريد مَنْ يحضر عرش بلقيس قبل أن يصلوا إليه .

حتى الجن لم يتعرض لهذه المهمة جنىٌّ عادى ، إنما عفريت من الجن ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ..** (٣٩) ﴾ [النمل]

وكلمة ( عفريت ) تعنى : أنه الماهر من الجن ، الشاطر الذى يأتى بما لا يأتى به غيره من بنى جنسه ، وهذا يدل على أن الجن منهم العفريت الماهر ومنهم ( اللبخة ) يعنى : مثلنا تماماً . وما زلنا فى لغتنا العامية نقول : فلان عفريت يعنى : ماهر يجيد ما لا يجيده الآخرون .

لكن ، كان فى مجلس سليمان مَنْ هو أمهر من العفريت وأكثر منه خبرة وخفَّة ، إنه الذى أُوتى قَدْراً من العلم ﴿ **قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..** (٤٠) ﴾ [النمل]

فإنْ كان العفريت سيأتى بعرش بلقيس قبل أنْ يقوم سليمان من مقامه ، وربما أقام سليمان فى مقامه هذا ساعة أو عدة ساعات ، لكن الذى عنده علم من الكتاب تعهد بأنْ يأتى به ﴿ **قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..** (٤٠) ﴾ [النمل] وارتداد الطَّرْف لا يحتاج إلى زمن طويل ، فالطرف[١] يطرف فى الدقيقة الواحدة عدة مرات .

لذلك صوَّر الحق سبحانه سرعة الاستجابة لهذا الفعل ، فقال :

---

(١) الطرف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [ القاموس القويم ١ / ٤٠٠ ]

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يتعرَّض السياق لتفاصيل الإتيان بالعرش ، ولم يذكر حتى أن سليمان أمره بالإتيان به ، بل : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠) ﴾ [النمل] هكذا مباشرة ؛ لأن الفعل نفسه لم يستغرق وقتاً ، وكذلك جاء التعبير سريعاً مباشراً .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أن الجن كانوا يَسْترقون السمع قبل بعثة محمد ﷺ ، أما بعد بعثته ﷺ فقد منعهم الله من استراق السمع ، فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

وهذه واحدة من ميزات رسالته ﷺ ، فقبل رسول الله صينَ سر السماء جُلُّه . وبعده ﷺ صينَ سرُّ السماء كلُّه . قبل رسول الله كان الجن يصعدون فى السماء يسترقُون السمع ، ويلتقطون بعض كلام الملائكة ، ثم يوحونه إلى أوليائهم من شياطين الإنس[1] ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

---

(١) عن أبى هريرة قال : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : قال الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مُسْتَرق السمع ـ ومُسْترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التى سمع من السماء » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/ ٣٨٠ ، ٥٣٧ بشرح ابن حجر ) ، وابن ماجه فى سننه ( ١/ ٦٩ ) والترمذى مختصراً ( ٥/ ٣٦٢ ) وقال : حسن صحيح .

ثم يخبرون الناس بما علموا ، ويدَّعُون أنهم يعلمون الغيب . وفعلاً تأتى الأحداث كما أخبروا ، فيغشُّون الناس ويخدعونهم ويفتنونهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يفضح الجن فى هذه المسألة ، فقال :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : على سليمان ، وكلمة ( قَضَيْنَا ) تعنى : أن الموت قضاء ، لا مندوحة عنه ، ولا يترتب على سبب من مرض أو كِبَر أو غيره ، وكما قُلْنا : والموت من دون أسباب هو السبب ، يعنى : مات لأنه يموت .

لذلك يخاطب الحق سبحانه الأحياء ، بما فيهم سيدنا رسول الله بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر] ويخاطبه هو ﷺ أولاً قبل أنْ يخاطب أمته بهذه الحقيقة .

ومعنى ( ميِّت ) أى : تؤول إلى الموت ، فنحن ونحن أحياء ميِّتون أى : سنموت ، أما الذى مات بالفعل فيسمى ( مَيْت ) بسكون الياء ، كما قال الشاعر :

* ومَا الميْتُ إلاَّ مَا إلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

لذلك ، فإن العلماء اما أعطونَا صورة حسِّية للموت قالوا : مع حياتك التى بدأت انطلق معها سهم الموت إليك ، فعُمْرك بمقدار وصوله إليك ، فنحن - وإنْ كنا أحياء - ميتون .

وقوله تعالى : ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : دلَّ الجن ، فضمير الغائبين فى ( دَلَّهُم ) يعود على معلوم من السياق الأول فى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ]

قالوا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام أنه كان يعبد الله

ويشكره بمقدار ما أنعم عليه وما أعطاه من المُلْك ، فمع كل هذه النِّعم كان يقضى الأسبوع والشهر لا يأكل إلا الخشكار[1] ، وهى ( الردة ) التى نعرفها ، وهى آخر درجة فى الدقيق ، والتى نسميها فى الفلاحين السِّن ، وهو طعام الفقراء والعبيد ، أما السادة والأغنياء فيأكلون الدقيق الفاخر أو ( نمرة واحد ) .

وسبحان الله ، أظهر العلم الحديث أن الفائدة فى هذا السنّ الذى يأكله الفقراء ، لدرجة أنه أصبح يُوصَف كدواء ، ويجعلونه الآن على هيئة أقراص كعلاج لبعض الأمراض ، حتى أن أهل الرفاهية الذين عاشوا على الدقيق الفاخر وتغذَّوْا طوال حياتهم على الخبز السياحى والقطايف .. إلخ . يأتى الواحد منهم فى أواخر حياته فيُحرِّم عليه الطبيب كل هذه الأنواع ولا يجد له دواء إلا فى السنِّ وفى الردة التى ما ذاقها طوال حياته ، وكأنها معادلة لا بُدَّ أنْ تتم بين الأغنياء والفقراء .

وهذه البحوث التى أظهرت لنا أهمية ( الردة ) تلفتنا وتُفهمنا معنى قول الله سبحانه وتعالى وقسمه : ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرحمن]

كذلك كان سيدنا سليمان يعبد الله واقفاً ، لا على هيئة مريحة ، فكان يشق على نفسه شكراً لله ، ويقف عابداً لله حتى يتعب ، فيراوح بين قدميه ، ثم يستعين بالعصا يتكىء عليها من شدة تعبه .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى لسان العرب ( الخُشَار والخُشَارة ) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . ( يقصد الردة أى القشرة ) والخشار أيضاً : الردىء من كل شىء . [ لسان العرب - مادة : خشر ]

وقد قضى الله عليه الموت ، وهو على هذه الهيئة ، فلم يكتشف الجن موته ، وظلوا يعملون بين يديه ويجتهدون خوفاً منه عليه السلام(١) .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى بموت سليمان مسألة شغلتْ الجن والإنس ، هى قضية علم الجن للغيب ، أراد سبحانه أن يفضح الجن ، وأنْ يُظهر عجزهم عن علم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

مات سليمان واقفاً متكئاً على عصاه ، وظل على هذه الحالة حتى سلَّط الله على عصاه دابة الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿ **مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ .. (١٤)** ﴾ [سبأ]

البعض يفهم أن ﴿ **دَابَّةُ الأَرْضِ .. (١٤)** ﴾ [سبأ] الأرض التى تقابل السماء ، لكن المراد الدابة التى تَقْرِض كما نقول : قرض الفأر كذا وكذا ، وفعلها قرض يقرض قَرْضاً . مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وهذه الدابة هى العتة التى تصيب الخشب وتأكله .

هذه الدابة أو العتة ظلتْ تنخر فى العصا حتى اختلَّ توازن سليمان عليه السلام ، فسقط على الأرض ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)** ﴾ [سبأ] أى : ما مكثوا وما ظلُّوا فى العذاب المهين . ومعنى خَرَّ : سقط بلا نظام ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)** ﴾ [النحل]

فالخرور انهيار بلا نظام وبلا ترتيب ، وعندها فقط علِم الجن

---

(١) أخرج عبد بن حميد عن قتادة : كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما فى غد ، فابتلوا بموت سليمان عليه السلام ، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته وهم مُسخَّرون تلك السنة ، ويعملون دائبين . [ أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٨٤ ] .

بموت سليمان ، وكذلك الإنس ، وعلموا أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب لاكتشفوا موته ، وما لبثوا فى العمل ، وفى التعب والعذاب طوال هذه المدة(١) ، عندها انكشف أمرهم ، وعُلم كذبهم وادعاؤهم معرفة الغيب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ] يدل على أن الجن يتعب من العمل ويطرأ عليه ما يطرأ على كل حيٍّ من تعب وإجهاد .

والمنْسأة هى العصا من الفعل نَسَأ بمعنى أخَّر ، وسُميَتْ العصا منسأة ؛ لأن الإنسان يزجر بها الهوام والحيوانات الضارية التى تؤذيه ويؤخرها عنه ويبعدها ويُردعها ؛ لذلك سميت منسأة .

وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ قال فى عصاه لما سأله ربه : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

وقد أطال موسى الحديث مع الله ؛ لأن الله تعالى آنسه أنْ يطيل حين قال له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧)﴾ [طه] ولم يقل له مثلاً : ما بيدك ؟ ثم مَن الذى يخاطبه ربه ولا يطيل الحديث معه سبحانه وتعالى ؟ ومع ذلك تدارك موسى أمره ، فقال مُجملاً ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

ونفهم من قوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ]

---

(١) أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : لبث سليمان عليه السلام على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خر على رأس الحول ، فأخذت الإنس عصاً مثل عصاه ، ودابة مثل دابته ، فأرسلوها عليها فأكلتها فى سنة . ( الدر المنثور ٦/٦٨٣ ] .

أن العمل الذى كانوا فيه كان عملاً شاقاً وفيه إهانة لهم ؛ لأن الجن يظنون أن لهم خيرية على الإنس ، وأنهم جنس تسامى على البشر ، بدليل قول أبيهم من قبل : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

فمن الإهانة لهم ، ومن العذاب أنْ يُسخَّروا لواحد من الإنس ، ويعملون له ، ويأتمرون بأمره ، فالعمل الذى كانوا يعملونه لسليمان إنْ لم يكُنْ مُرهقاً لهم بدنياً فهو مرهق نفسياً ، ولم لا وقد سخَّرهم مَنْ هو أدنى منهم - على حسب ظنهم .

ولسائل أنْ يسأل : كيف يكون فى العذاب المهين مَنْ يخدم نبياً ويعاشره ؟ نقول : هذه الشبهة جاءتْ من كلمة الجن ، ففهمنا أن الجن كلهم كانوا مُسخَّرين لسليمان ، والحقيقة أن الجنَّ سُمِّى كذلك ؛ لأنه مستور الفعل لا نراه ، والذى سخر من الجن هم الشياطين ، كما قال سبحانه : ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧)﴾ [ص]

وقال : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ .. (٨٢)﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هم أصحاب العذاب المهين ، أما مؤمنو الجن فلم يكونوا مُسخَّرين .

وكلمة ( خَرَّ ) بمعنى سقط توحى بأن كرامة الإنسان فى روحه ، وفى السر الذى وضعه الله فيه ، فهذا سليمان نبى الله بجلالة قدره ومكانته عند ربه يقول عنه ﴿فَلَمَّا خَرَّ .. (١٤)﴾ [سبأ] وكأنه جماد سقط على الأرض ؛ لأن الروح حينما تفارق الجسد يصير كالجماد ، كالعصا وكالحجر .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الروح ساعة تُسلَب من الجسد أول ما ينسى ينسى اسمه مهما كان عظيماً ، ويقولون : الجثة ثم إذا ما وُضعَتْ فى النعش يقولون : الخشبة .

سبحان الله ، لم يَعُد لهذه المادة أية صفة ، بل ويسارع الأهل والأحبة إلى الخلاص منها ودفنها بأسرع ما يمكن ، ولو بقيتْ عندهم لا يتحملها أحد منهم ، لما يطرأ عليها من تغيُّر ورائحة يتأذى منها أقرب الأقارب .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن سبأ وأهلها ، فيقول تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ينقلنا الحق - تبارك وتعالى - من قصة سليمان عليه السلام إلى أهل سبأ ، فما العلاقة بينهما ؟ المتأمل فى سور القرآن وآياته يجد بينها ترابطاً وانسجاماً ، والمناسبة هنا أن سيدنا سليمان كانت له أبرز قصة فى الإيمانيات والعقائد مع بلقيس ملكة سبأ ، فبينهما إذن علاقة ، وهذه النقلة لها مناسبتها .

وقصة سليمان والهدهد وبلقيس قصة مشهورة ، وبها دلالات إيمانية عظيمة فى العقيدة ، وفى بيان أن الحيوان عنده دراية بالعقيدة ، وبأسرار الله فى كونه .

و ( سَبَأ ) عَلَم على رجل اسمه عمرو بن عامر ، ويُلقِّبونه بمزيقباء وأبوه ( ماء السماء ) وقد سأل كرَّة بين نسيك[1] رضى الله

---

(١) صوابه : فروة بن مُسَيْك المرادى ، له صحبة ، يعد فى الكوفيين وأصله من اليمن يكنى أبا سبرة ، وفد على النبى ﷺ فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد ، وكانت وفادته هذه عام تسع أو عشر للهجرة ، واستعمله عمر على صدقات مذحج ، ثم سكن الكوفة وكان من وجوه قومه . [ باختصار من الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ترجمة رقم ٦٩٧٥ ، وذكر له سؤاله رسولَ الله ﷺ عن سبأ ] .

عنه سيدنا رسول الله عن سبأ فقال : ( كذا وكذا .... ) وكان له عشرة أولاد هم : أزد ، وكِنْدة ، ومَذْحج ، وأشعريون ، وأنمار ، وغسان ، وعاملة ، ولَخْم ، وجُذَام ، وخثعم[1] .

وقد كوَّن كل واحد منهم قبيلة كبيرة . ستة من هؤلاء ذهبوا إلى اليمن ، وأربعة ذهبوا إلى الشام ، الذين ذهبوا إلى اليمن عاشوا فى خيرها الوفير ، فيُروى أن بلقيس لما رأتْ ماء المطر يسيح فى الوديان وتتشرّبه الأرض ، فلا يستفيدون به ، فكَّرت فى بناء سد بين جبلين يحجز ماء المطر ، وجعلت به عيوناً كالتى عندنا فى القناطر الخيرية مثلاً ، تفتح عند الحاجة وتعطى الماء بقدر ؛ لذلك زاد الخير والنماء فى اليمن ، حتى سُمِّيت اليمن الخصيب واليمن السعيد .

إلا أن عرافة عندهم أو امرأة حكيمة ذات رأى قالت لسبأ هذا : إن السد سيخرب ويُغرق ماؤه اليمن فاخرج منها ، وفعلاً خرج سبأ إلى الحجاز والشام ، حيث ذهب الغساسنة إلى الشام ، والمناذرة إلى العراق ، وأنمار إلى المدينة ، وأزد إلى عمان فى الأردن .

واسم سبأ بعد أنْ كان علَماً على شخص تعدَّى إلى أنْ صار اسماً لقبيلة ، ثم اسماً للمكان الذى يسكنونه .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ .. (١٥)﴾ [سبأ] أى : المكان الذى يسكنونه ، والمكان الذى يعيش فيه الإنسان يُسمَّى ( سكن ) أو ( بيت ) أو ( منزل ) ، ولكل منها معنى . والسكن هو المكان الذى يتخذه الإنسان ليسكن إليه وليطمئن فيه ، ويرتاح من حركة الحياة والعمل ، والإنسان لا يسكن إلا فى مكان تتوفر فيه

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ( ٣٢٢٢ ) ، وأبو داود فى سننه مختصراً ( ٣٩٨٨ ) كتاب الحروف والقراءات من حديث فروة بن مسيك رضى الله عنه .

مُقوِّمات الحياة والأمن .

لذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لما وضع زوجته وولده عند البيت دعا ربه : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فقد كان هذا المكان جَدْباً لا زرع فيه ولا ماء ، ولا مُقوِّم من مقومات الحياة إلا الهواء ومعنى ﴿ أَسْكَنتُ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] أى : وطَّنْتهم فى هذا المكان .

أما المنزل فهو المكان تنزل فيه مرة أو عدة مرات ، ثم ترحل عنه لا تقيم فيه إقامة دائمة ، فهو كالاستراحات التى تُجعل للطوارئ ، ولا يقيم فيها أهلها إلا عدة أيام فى السنة كلها .

ومن ذلك ما رُوِى أن سيدنا رسول الله ﷺ لما نزل ببدر سأله الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : إذن لا أراه لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نُعَوِّر ( نفسد ) ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى »[2] .

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى الخزرجى ، شهد بدراً ، وكان يكنى أبا عمر. قال ابن سعد : مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [ الإصابة لابن حجر ترجمة رقم ١٥٤٧ ] وذكر له أبياتاً من الشعر .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية ( ٢/٢٥٩ ، ٢٦٠ ) وعزاه لابن إسحاق أنه حُدِّث عن رجال من بنى سلمة .

إذن : السكن فيه دوام واستقرار ، أمـا المنزل فهو استراحة ، إنْ شئتَ نزلتَ به ، وإنْ شئتَ رحلتَ عنه .

أما البيت فيُلاحظ فيه البـيتوتة ، والإنسان لا ينام نوماً مريحاً إلا فى مكان يأمن فـيـه على نفـسـه وعلى مالـه ، فإن الخـائف وكـذلك الجوعان لا ينام .

ومن السكن قـوله تعالى فى بنى إسـرائيل : ﴿ **وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا** (١٠٤) ﴾[الإسراء]

أخذ أحـد المستشـرقين هذه الآية ، وجعلهـا دليلاً على أن الأرض كلها مُبَاحة لليهود ، كيف وهم فى الأرض ، وأنت حين تريد هذا الأمر تقـول : اسكن القاهرة ، اسكـن طنطا مثـلاً ، فتـعـين لى مكاناً ، لكن ﴿ **اسْكُنُوا الأَرْضَ** .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] لها معنى آخـر ، هو التقطيع الذى قال الله عنه : ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا** .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

يعنى : ليس لهم وطن مخـصـوص ، وسوف ينساحـون فى الدنيا كلها ، ولن يتـمكن أحد من ضـربهم والقضاء عليـهم ، وهم على هذه الحالة من التـقطيع ، حتى يأتى أمر الله ، ويجمعـهم فى مكان واحد ، وعندها سيسـهل القضاء عليهم .

ومعنى كـلمة ﴿ **آيَةٌ** .. (١٥) ﴾ [سبأ] نقول : فـلان آية فى الكرم ، وفلان آية فى الأدب ... إلخ ، والمراد شىء عجيب نادر الوجود ، والحق سبحانه حدثنا عن أنواع ثلاثة من الآيات : آيات كونية مثل : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ** .. (٣٧) ﴾ [فصلت] ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** .. (٣٩) ﴾ [فصلت]

وآيات بمعـنى معجـزات وخوارق للعـادة ، تأتى على أيدى الرسل

لتـؤيدهم وتثبت صـدْقهم فى البـلاغ عن الله ، كمـا فى قوله تعـالى :
﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (٣٢)﴾ [القصص]

ثم تُطلق الآيات على آيـات الكتاب الحـاملة لأحكام الله فى القـرآن الكريم ، وهذه كلها ـ سواء كانت آيات كـونية ، أو معجزات ، أو آيات القرآن ـ كلـها عجـائب ، وإن كانت هذه العـجائب واضـحة فى الآيات الكونية وفى المعجزات ، فـهى أيضاً واضحة فى آيات الكتاب الحكيم ، فالقرآن عجيبة فى تنظيم حياة الناس بدليل أن الكافر به سيُضطر إلى الأخذ بأحكامه والانصياع لقوانينه ، لا على أنها دين ، ولكن على أنها قوانين حياة .

وســبق أنْ مــثَّلْنـا لذلك بأحكـام الطلاق التى طـالمــا نقــدوها وهاجموها ، واتهـموا دين الله ـ ظلماً وجهلاً ـ بالقـسوة ، ثم بعد ذلك نراهم يلجـئـون إليه ، ولا يـجدون حـلاً لبـعـض مـشكـلاتهم إلا فى الطلاق وفى الرجـوع إلى أحكام الله ، مع أنهم غـير مـؤمنين به ، وهذا منتهى الغَلَـبة لدين الله أن يرجع إليه الكافـر به ، إنها غلبـة الحق وغلبة الحجة .

وسبق أنْ قُلْنا : إن أحد المستشرقين سألنا فى سان فرانسيسكو قال : فى القرآن ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾ [الصف]

وبعـد أربعـة عشـر قـرناً من الزمـان ما زال فى الدنيـا يهـودية ومـسيـحيـة وبوذية ... إلخ ، وهذا الكلام يدل على عـدم فَهْم لمـعنى الآيات ، فليـس المـراد ﴿لِيُظْهِـرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.. (٩)﴾ [الصف] أن يصـبح النـاس جـمـيـعـاً مـؤمنين ، بدليـل قـوله تعـالى ﴿وَلَوْ كَـرِهَ الْمُشْرِكُونَ(٩)﴾ [الصف]

إذن : فالدين سيظهر ظهور حجة وظهور غلبة على تقنيناتهم ، وسوف يطرأ عليهم من مشكلات الحياة ما لا يجدون له حلاً إلا فى شرع الله ، وهذا هو الظهور المراد فى الآية .

ثم يوضح الحق - تبارك وتعالى - ماهية الآية التى كانت لسبأ فى مسكنهم ، فيقول سبحانه : ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** .. (١٥) ﴾ [سبأ] وما دام الله تعالى وصف هاتين الجنتين بأنهما آية ، فلا بُدَّ أن فيهما عجائب ، وأنهما يختلفان عن الجنَان التى نعرفها .

وقد حدَّثنا العلماء عن هذه العجائب فقالوا عن هاتين الجنتين : لا تجد فيهما عقرباً ، ولا حية ، ولا ذباباً ، ولا برغوثاً ... إلخ ، فإنْ طرأ عليهما طارئ ، وفى جسمه قُمَّل فإنه يموت بمجرد أنْ يدخل إحدى هاتين الجنتين(١) ، وهذه كلها عجائب فى الجنتين .

ونلحظ هنا أن الآية مفرد والعجائب كثيرة ؛ لأن كلمة آية تُطلَق على الجمع أيضاً ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً** .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] ولم يقل آيتين ، قالوا : لأن الأمر العجيب الذى جمعهما واحد ، فعيسى عليه السلام وُلد من لا ذكورة ، وأمه حملتْ وولَدتْ كذلك من لا ذكورة ، فالآيتان آية واحدة .

ومعنى : ﴿ **جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ** .. (١٥) ﴾ [سبأ] يحتمل أنْ يكون لكل واحد منهم جنتان ، واحدة عن اليمين ، والأخرى عن الشمال ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] قال : لم يكن يُرى فى قريتهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية ، وإن الركب ليأتون فى ثيابهم القمل والدواب ، فما هو إلا أن ينظروا إلى بيوتها فتموت تلك الدواب ، وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين ، فيمسك القفَّة على رأسه ، ويخرج حين يخرج وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة ، ولم يتناول منها شيئاً بيده . [ أورده السيوطى فى الدر المنثور ( ٦/٦٨٧ ) ] .

وبيته في الوسط ، ويحتمل أن تكون الجنتان لأهل سبأ جميعاً ، بمعنى أنها جنَان موصولة عن اليمين ، وجنَان موصولة عن الشمال وَصْلاً لا يُميَّز بسور ولا حائط[1] ، مما يدل على أن الأمن كان مستتباً بينهم ، وقد شاهدنا مثل هذا في أمريكا ، حيث الحقول والمزارع ممتدة متصلة لا يفصلها إلا مجرد سلْك بسيط .

وقوله سبحانه ﴿كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥)﴾ [سبأ] كيف نفهم ﴿كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥)﴾ [سبأ] والناس جميعاً يأكلون من رزق الله ؟ قالوا : الناس يأكلون من رزق الله بالأسباب ، إنما هذا رزق الله مباشرة بلا أسباب ؛ لذلك يقول تعالى في موضع آخر ﴿كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١)﴾ [طه]

فليس كل الرزق طيباً للأكل ، إنما هنا ﴿كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥)﴾ [سبأ] أي : كله طيب ، وكله حلو ، فالفاكهة في هاتين الجنتين لا يصيبها عطب ، ولا يطرأ على ثمارها ما يطرأ على الثمار من فساد ؛ لذلك سيقول سبحانه في آخر الآية : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥)﴾ [سبأ]

ونعرف أن البساتين مؤونة الخدمة فيها قليلة ؛ لذلك نرى الفلاح حين يضيق بزراعة الأرض وأجور العمالة يلجأ إلى زراعة الحدائق والبساتين المثمرة ؛ لأنها أقلّ تكلفة ، ولا تحتاج إلى رعاية كثيرة إلا وقت الإثمار .

---

(١) ورد في الجنتين عدة أقوال ، منها :
- أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قاله قتادة .
- إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله . قاله سفيان .
- لم يُرد جنتين اثنتين ، بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة . قاله القشيري . أوردها القرطبي في تفسيره ( ٥٥٥٣/٨ ) وقال : أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ، تستر الناس بظلالها .

والحق سبحانه يقول فى غير هذا الموضع : ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤)﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً وحرثاً ، إنما المسألة هنا فى هاتين الجنتين ، فهى عطاء من الله بلا عمل وبلا أسباب ، فالله سبحانه هو الزارع ، وقد خصَّها بالجو اللطيف ، لا حرَّ ولا قَرَّ ، ولا سآمة ، ولا مخافة ، ولا زهد فى نعمة من النعم لتكرارها .

إذن لا عمل لهم فى حدائقهم ينتج ما يستمتعون به ، إنما عملهم أنْ يشكروا المُنعمَ سبحانه ليزيدهم من الخيرات ، وشكْر النعمة هو حكمة العبد مع مولاه ؛ لذلك قال سبحانه عن لقمان : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢)﴾ [لقمان] ما هذه الحكمة ؟ ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢)﴾ [لقمان] لأن شكر النعمة يزيدها .

وقوله سبحانه : ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥)﴾ [سبأ] يعنى : تعطيك طيب الأشياء بدون منغصات فيها ؛ لأن هناك أشياء تعطيك طيباً تهنأ به ، لكنها تتعبك وتُنغِّصك فيما بعد .

أما هذه البلدة فما فيها طيب تأكله هنيئاً مريئاً ؛ لأنها رزق الله بدون أسباب من العباد ، لكن حين يتدخل العباد فى عطاء الله تظهر فى النعم متاعب ومُنغِّصات ، وهذا ما نعانى منه الآن بسبب التدخل فى المزروعات بالمواد الكيماوية والمبيدات الحشرية ، التى أفسدت علينا حياتنا ، وجاء ضررها أكثر من نفعها حتى أصبحنا نعزو كل الأمراض إلى تدخّلنا فى عطاء الله ، ولو تركنا الأرض تُروى بماء السماء كما كان فى البداية لَذُقْنا الخير بلا مُنغِّصات ، فمن الضرورى أن نتأدب مع الله فى عطائه .

لذلك تجد كثيراً من المترفين والمثقفين وأهل العلم والفلاسفة

يحبون الخروج من ضوضاء المدن وتلوث هوائها ومياهها وما فيها من صخب ويخرجون إلى الريف أو البرارى ، يهربون من الآثار الضارة للحضارة الحديثة إلى الخلاء ، حيث يعيش راعى الأغنام ، حيث الطبيعة كما خلقها الله ، وحيث الفطرة السليمة التى لم يتدخل فيها البشر .

تذكرون فى الماضى ، كنا نقاوم دودة القطن مقاومة يدوية طبيعية ، فلما تقدمت العلوم جاءوا بمادة ( دى دى تى ) للقضاء على دودة القطن ، لكن هذه المادة السامة أماتتْ كل شىء فى الحقول ، قضَتْ على الأسماك فى الترع والمصارف ، وقضتْ على ( أبى قردان) صديق الفلاح ، ولوَّثت الماء والمزروعات ... إلخ . أما دودة القطن فهى الوحيدة التى أخذت مناعة ، وأصبحت كما قلنا ( كييفة ) دى دى تى .

أما سبأ فكانت ﴿ **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ** .. (١٥) ﴾ [سبأ] بكل ما فيها من طيب الماء والهواء والتربة لم يُصبْها تلوث من أىِّ نوع ، وإذا كانت البلدة نفسها طيبة ، فما بالك بما عليها ؟

وفى الآية طلبان ﴿ **كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ** .. (١٥) ﴾ [سبأ] وفيها تحذير : إياك أنْ تغتر بالنعمة ، وتظن أنها أصبحت ملكاً لك ، وتنسى المنعم بها عليك ، إياك أنْ تكون كالذى قال الله فيه ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ** (٦) **أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ** (٧) ﴾ [العلق]

إياك أن تظن أنك أصيل فى هذه المسألة ، وظلّ دائماً على ذكْر بأن المنعم هو الله ، وأن ما أنت فيه هو من عطاء الله ، ثم بعد ذلك عليك أن تشكره سبحانه ؛ لأن الشكر قيد النعم .

وفى موضع آخر ، تكلم الحق سبحانه عن شكر النعمة فقال : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** (١٣) ﴾ [سبأ] والحمد لله أنه سبحانه لم يقُلْ :

وقليل من عبادى الشاكر ، وتعلمون أن الشكور صيغة مبالغة من الشكر ، أو الشكور هو الذى يشكر على النعمة ، ثم يشكر الله على أن ألهمه أنْ يشكر على النعمة ، فكأنه قدَّم الشكر مرتين .

ثم لم يَقْصُر النعمة على أهل سبأ فى الدنيا وحَسْب ، إنما تعدَّت نعمته عليهم إلى الآخرة ، ففى الدنيا ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] وفى الآخرة ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ] يعنى : يتجاوز عنكم إنْ حدثت منكم زَلَّة أو هفوة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه النتيجة وردَّ فعْلهم ، فيقول :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[2] قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا .. (١٦) ﴾ [سبأ] أى : عن المأمور به ، وهو ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ.. (١٥) ﴾ [سبأ] فلم يأكلوا من رزق الله ، إنما أكلوا من سعيهم ومهارتهم - على حدِّ زعمهم - وهذه أول الخيبة ، ثم لم يشكروا الله على هذه النعم ؛ لأن النعم أترفتهم فنسوا شكرها .

وفَرْق بين ترف وأترف ، نقول : ترف فلان أى تنعَّم . لكن أترف

---

(١) العرم : السيل الشديد أو المطر الشديد أو السد يعترض ماء الوادى ، أو أنه اسم وادٍ بعينه. [ القاموس القويم ٢/١٧ ] .

(٢) الخمط : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس . والأثل : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان أوراقه دقيقة وثمره حب أحمر مُرٌّ لا يؤكل . والسدر : شجر النبق وهو شجر ذو أشواك ، له ثمر فيه حلاوة قليلة .

فلان ، أى : غرَّته النعمة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا .. (١٦) ﴾ [الإسراء]

فلا بأس أنْ تتنعم ، لكن المصيبة أن تُطغيك النعمة ، وتغرّك ، وأول طغيان بالنعمة أن تنسبها إلى نفسك فتقول : بمجهودى وشطارتى كالذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. (٧٨) ﴾ [القصص] ثم أنْ تنسى المنعِم ، فلا تشكره على النعمة .

وفى موضع آخر لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية فى قوله سبحانه ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وقال فى قوم سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن]

إذن : صيانة النعمة بشكرها والاعتراف بها كلها منسوبة إلى المنعم سبحانه ، وحتى نحن على مستوى البشر نقول : فلان هذا حافظ للجميل ، فنزيده ولا نبخل عليه بجميل آخر وآخر ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى ؟!

وكلمة الإعراض تُعطى شيئاً فوق الإهمال وفوق النسيان ؛ لأن الإعراض أنْ تنصرف عن مُحدِّثك وتعطيه جانبك كما تقول لمَنْ لا يعجبك حديثه ( اعطنى عرض كتافك ) .

إذن : الإعراض تَرْك متعمَّد بلا مبالاة ، أما السهو أو النسيان أو الخطأ أو عند النوم ، فهذه كلها أمور مُعْفىً عنها ، قد رفعها الله عنَّا رحمة بنا ، فربُّك عز وجل لا يعاملك إلا على اليقظة والانتباه وتعمد الفعل .

واقرأ إنْ شئتَ قول ربك : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)﴾ [طه]

لماذا ؟ لأن الإعراض فيه شبهة عدم اعتناء بالآمر ، فالنكبة فيه أشدُّ على خلاف أنْ تكون معتنياً بالآمر ، وبعد ذلك تتهم نفسك لأىِّ سبب آخر .

ويقول تعالى أيضاً فى الإعراض : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٥١)﴾ [فصلت] وسوف يأتى الجزاء على قدر الإعراض ، كما بيَّن الحق سبحانه فى قوله : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ .. (٣٥)﴾ [التوبة]

كما نقول : أنت ربيتَ مَنْ سيقتلك فيما بعد ، كذلك هؤلاء كنزوا الأموال ليتمتعوا بها قليلاً فى دنيا فانية ، ثم يلاقون تبعة ذلك يوم القيامة ، نار تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم ، حتى يتمنى الواحد منهم ـ والعياذ بالله ـ لو أنه قلَّل منها حتى يُقلل من مواضع الكىِّ .

وتأمل هذا الترتيب : جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فسوف تجده نفس ترتيب الإعراض عن المحتاج الذى سأل صاحب المال فى الدنيا ، فأول ما يراه يشيح عنه بوجهه ، ثم يعطيه جانبه ، ثم يدير إليه ظهره ، فيأتى الجزاء من جنس العمل وبنفس تفاصيله .

فماذا كانت نتيجة هذا الإعراض ؟ يقول تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ .. (١٦)﴾ [سبأ] أى : بعد أن انهار سدُّ العرم ، فسال ماؤه ، فأغرقهم ، ومن العجيب أن الله تعالى جعل من الماء كل شىء حى ،

لكن إذا أراده سبحانه وسيلة هلاك أهلك ، وبه أهلك اللهُ قومَ نوح ، وبه أهلك فرعونَ وجنوده ، وهذا من طلاقة قدرة الله ، حيث يوجه الشيء للحياة فيُحيى ، وللهلاك فيُهلك .

وبعد أنْ أفزعهم سيل العرم لما أرادوا الإقامة بعد ذلك أقاموا فى أماكن لا ماء فيها ، فإذا أرادوا الماء جلبوه من الآبار بالقِرَب ، وكأن الماء أحدث لديهم ( عقدة ) .

وهذه القضية القديمة لها عندنا قصة حديثة : كنا ونحن فى الأزهر نلبس ( القفاطين ) و ( الكواكيل ) ، وكان لنا زميل حالته رقيقة ، وكان لا يملك إلا ( كاكولة ) واحدة لبسها حتى بليت وتمزقت ، فكان يمدّ يده من وقت لآخر إلى مكان القطع ويحاول أن يداريه ، حتى صارت عادة عنده ، ثم رزقه الله بأخ له توظف واشترى له ( كاكولة ) جديدة ، فلما لبسها صارت يده تمتد إلى نفس الموضع ، وتحاول ستر القطع الغير موجود فى الجديدة ، فقال له أحد الزملاء : ما لك ؟ فقال : القديمة رعبانى .

والسيل : أن يسيل الماء على وجه الأرض بعد أنْ تشرَّبت منه قَدْر حاجتها ، فما فاض عليها سال من مكان لآخر ، والحق سبحانه يعلمنا : قبل أنْ نبحث عن مصادر الماء لا بُدَّ أنْ نبحث عن مصارفه حتى لا يغرقنا ، واقرأ : ﴿ **وَقِيلَ يَـٰأَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَـٰسَمَاءُ أَقْلِعِى ..** (٤٤) ﴾ [هود]

فالأمر الأول للأرض أنْ تبلع الماء وتتشرَّبه ، ثم يا سماء أمسكى ماءك ؛ لذلك إذا تشبَّعت الأرض بالماء نقول : الأرض ( عنِّنت ) يعنى : امتلأت بالمياه الجوفية ، فإنْ كانت أرضاً زراعية لا تُخرج زرعاً ، وإن كانت فى المدن أضرَّت بالمبانى ، وفاضتْ فى الشوارع وكسرت